# مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً

العدد الثانى

1985

- من قضايا الفكر والعقيدة
- مذاهب بلا إسلام
- معارف إسلامية
- مخطوطات ليبية
- دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية

# النقـــــد والتـــاريـــخ للأدب

• الاستاذ فخر الدين محمد عامر •

اتجهت الدراسات الادبية فى العصر الحديث الى التخصص الذى ينكر التعميم ، والتشعيب ، والاستطراد فيما يعد من بارع القول ، وسعة الثقافة وتنوع المعارف ، واقتران هذا التخصص بالمنهجية التى اصبحت لازمة فى عصر فاضت معارفه ، وتزاحمت فنونه ، وعظمت علومه ، بحيث لم يعد امام الباحث الا الالتزام المنهجى لما هو بصدده ، تجنبا للتداخل الذى يفقدنا التحديد والوضوح ، ويبعدنا عن ثراء الاعماق العلمية الدقيقة . وقد تنوعت هذه المناهج ، وتفاوتت وسائلها حتى صارت معلما من معالم الدراسة الادبية التى يقبلها العصر ، ويعدها من سمات حضارته العلمية فى تطورها ونمائها .

لذلك تنوعت الدراسات الادبية ، واستقلت افانينها ، وتميزت مناهجها تميزا ناسب فروع الأدب فى مادتها وموضوعها . ومن هذه الدراسات النقد الادبى وتاريخ الادب .

وقد لايكون ممكنا استقلال تاريخ الأدب عن النقد والبلاغة والنحو والصرف والعروض وعلم اللغة وفقهها ، وجانب من العلوم الانسانية كالتاريخ والاجتماع وعلم النفس وغيرها ، لانها كلها تشبه قطع الفسيفساء التى تتركب منها مادة الأدب فى مبانيها ومعانيها ، واصل وجودها فى اغوار الأديب ، وهى كذلك وسائل المؤرخ فى رصد الظواهر الادبية ، وتعليل نشأتها وتطورها ، وتحديد الخصائص الاسلوبية والفكرية للأدباء ، والتعرف على الطوابع الفنية للانماط الادبية المختلفة ، وكلها شغل المؤرخ وشاغله .

ولااخال التدليل على ذلك الا من نافلة القول وتكريره . فحسبنا فى هذا الصدد ابو الطيب المتنبى الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، والمعارك النقدية التى تحلقت حوله ، والمصنفات التى صنفت من اجله وهى تقطر جهدا ، وتفيض جدلا ، وصولا الى سبر اغواره الفنية والفكرية ، والوقوف على حقائق رؤيته الشعرية من خلال اتجاهاته النحوية والبلاغية واللغوية ، مرورا بالعلاقات الاجتماعية والتاريخية والنفسية ، حتى لم يعد للمؤرخ الادبى من سبيل الى التاريخ لرقى فنه الا بالاتكاء على كل ماحشد للعربية من علوم ، وماجت به ثقافات عصره من فنون (١) .

واذا التزمنا التفكير التجريدى ، لاحظنا ان مادة الادب قد وجدت اولا ، مهلهلة ثم مقصدة وكذا منثورة فى خطب ورسائل ومنافرات وامثال وحكم ووصايا ، ثم لاحقتها نظرات نقدية جزئية ساذجة ، اعتمدت الذوق الشخصى معيارا ، والمأثور منهجا ؛ طلبا لاكتمال الصياغة وصحة المعنى ، تمثل ذلك فى سوق عكاظ ومجالس التحكيم بين الشعراء ، وملاحظات اللغويين والادباء . ثم اخذ النقد ينمو ، وتتحدد اتجاهاته ، وتعلل احكامه ، وتتشعب مذاهبه ، وافرزت له مصنفات هى من الأدب الوصفى او الادب النقدى ، بعضها شخصى حول من أبدع فى الادب خلاف المأثور ، او ابتدع بدعا غير مألوفة ، وأحدث عند النقاد جديدا لم تتهيأ له معاييرهم النقدية ، ولم يستسغه سمتهم الادبى ، كأبى تمام الذى صنف حوله الآمدى كتاب «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» منتصفا فيه للبحترى ، وكالمتنبى الذى اقام النقاد ولم يقعدهم ومنهم الحاتمى صاحب «حلية المحاضرة ، والرسالة الموضحة» والقاضى الجرجانى صاحب «الوساطة بين المتنبى وخصومه» . وبعض المصنفات النقدية جاء ثمرة لنمو كثير من المباحث البلاغية واللغوية الفلسفية ، مستهدفا وضع القواعد ، وارساء دعائم الفلسفة الجمالية للأدب ونقده ، مثل كتابى «اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز» للامام عبدالقاهر الجرجانى ، و « المثل السائر فى ادب الكاتب والشاعر » لضياء الدين بن الاثير . وغير هؤلاء كثير صنفوا فى النقد ، وافاضوا فى مباحثه التى اختلطت احيانا بالدرس البلاغى ، وتحكم المنطق الجاف ، والتقسيم المنطقى الجاد ، حتى صارت اقرب الى مجالات العلوم الطبيعية منها الى الفن الادبى ، كما فى كتاب «نقد الشعر» لقدامة بن جعفر ، وكتاب «الصناعتين » لابى هلال العسكرى .

(والى جانب كتب النقد الخالص صنفت كتب الادب والتراجم مثل «**الكامل**» للمبرد و «**الاغانى**» للاصفهانى و «**يتيمة الدهر**»للثعالبى و «**الذخيرة**» لابن بسام الشنترينى ، و «**ارشاد الاريب الى معرفة الاديب**» لياقوت الحموى ، وغيرها من كتب الامالى والاختيارات الشعرية والطبقات ، وقد وشيت بالآراء النقدية فى معرض مباحثها الادبية واللغوية ، وهى آراء اسهمت فى ثقافة النقاد ، وهم يعملون على إرساء الاسس فى مصنفاتهم النقدية ، او بالأحرى فقد اوقفتهم على آراء الادباء واللغويين والنحاة فى العمل الادبى ونقده ومنزلة رجاله فى فنونهم ، واحوالهم فى عصورهم . كما كانت هذه الآراء ذات نفع عظيم للنقدة فى القرنين الرابع والخامس امثال الآمدى والقاضى الجرجانى وابن رشيق القيروانى وابن سنان الخفاجى والامام عبدالقاهر الجرجانى ،

بعدما ماشغل المتنبى الادباء والنقاد بمشاكله ، واحتدم الجدل حول قضايا الشعر الاساسية وشارك فيه ادباء المغرب والاندلس . وبامعان النظر فى مباحث النقدة نجد ان النقد الادبى عندهم «فن ادنى الى البحث فى الأدب وحياته ، والى البحث فى الادباء ، وكيف انتجوا هذا الادب . هو فن متشعب فسيح يتصدى للتحليل والتعليل والشرح ، ويتصدى لذكر مميزات العصور الأدبية ، ومميزات الشعراء والكتاب ، ويتصدى فوق ذلك لتحليل عناصر الأدب تحليلا قائما على الذوق الصافى ، تحليلا ارق وابهج من تحليل البيانيين»(٢) .

والنقد بهذه الصفة يعد وثيق الصلة بتاريخ الأدب الذى نشا متأخرا بعدما فاضت مادته شعرا ونثرا ، ومُحصت جوانبها الفكرية ، ومُخضت عصاراتها اللغوية والبلاغية والبنائية صياغة وتركيبا ، ومن ثم كان على المؤرخ ان يقف على المباحث النقدية ، ليفقهها فتعينه على السداد فيما يعرض له من «دراسة لتطور الأدب وفنونه ، وتعريفه بالنابهين من الادباء فى أمة من الامم ، وبما كان لهم من آثار ويعرف بتأثير الحياة والبيئة والظروف التى أحاطت باولئك الأدباء ، واثرت فى انتاجهم ، ويصف مابينهم من وجوه التشابه او التخالف ، وينظر فى مظاهر الجدة والابتكار ، او الاحتذاء والتقليد ، وبين آثار العصور المتلاحقة فى تطور الفنون الأدبية»(٣)

هذا من الجانب التاريخى التجريدى فى النشأة والروابط التى تصل فنونه الأدب ، ولو انصفنا الحقيقة لقلنا ان النشأة الأدبية للنصوص صحبتها النظرة النقدية ، غير متخلفة ولامتوانية . وقد سجل ابن سلام الجمحى كثيرا من ذلك فى طبقاته . وتمكينا للعرى والاواصر التى تربط تاريخ الأدب بالمباحث النقدية ، وتوضيحا لمدى استفادة المؤرخ من عمل الناقد فى تناوله مادة الأدب وأعلامه ، نذكر بعض القضايا المشتركة بينهما ، والتى تنبع اصلا من عمل الناقد لتكون بين يدى المؤرخ اسسا ومعالم فى التعرف على تاريخ الأدب عبر عصوره ، وكشف اتجاهات الأدباء ومناهجهم الفكرية والفنية . وذلك على سبيل التمثيل لا الحصر .

## رواية النصوص وتحقيقها

ان النص الادبى ركنٌ ركين فى عمل المؤرخ ، وبدونه يفقد الدليل والسند الذى ينهض عليه عمله ، لانه من «الممكن وضع تاريخ للفلسفة او العلوم العقلية ، اذ ميدان البحث فيها هو الافكار وحدها ، ولكن الادب انتاج مادية الافكار الخاصة ، والمشاعر المصوغة فى تعبيرات فنية . فسبيل الباحث فى تاريخه الرجوع الى النصوص وتحليلها لتفهم الافكار فى صيغها ، وفى طابعها بدون اعتماد على القواعد العامة والافكار التجمعية وحدها »(٤) لذلك اهتم النقاد بالرواية الادبية وتحقيق النصوص تحقيقا تاريخيا ، فتطرقوا الى الانتحال ، وبحثوا فى السرقات الادبية ، وترصدوا اخطاء الناسخين ، واختلاف روايات الدواوين وكلها امور وثيقة الصلة بعمل المؤرخ المعتمد اساسا على

النص الصحيح ، والذى يعد تحقيقه الخطوة الاولى نحو التثبت من نسبة الآثار الأدبية الى اصحابها تمهيدا لتقرير الاحكام واستنباط الظواهر العامة والخاصة لفترة زمنية او جماعة أدبية او فن بعينه . ومن الجانب المنطقى فانه لايصح التأريخ على هدى وثائق لم يتأكد ثبوتها لاصحابها .

ومن اهم اسباب تحقيق النصوص الأدبية شيوع الانتحال الذى اشتهر به جماعة من الرواة مثل حماد وخلف ، حيث كانوا ينحلون شعر الرجل غيره ، يخترعون له ما لم يقله ، او يحرفون الكلم عن مواضعه .

وقد عبر محمد بن سلام الجمحى عن اثر الانتحال وخطورته بقوله : «ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة مابقى بايدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذى صح لهما قصائد بقدر عشر ، وان لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة ، وان كان مايروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على افواه الرواة ، ونرى ان غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير ان الذى نالهما من ذلك اكثر ، وكانا اقدم الفحول ، فلعل ذلك لذلك [ اى كثر النحل للفحولة والايغال فى القدم] ، فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير »(٥) . فابن سلام الجمحى يضمن كتابه النقدى ملحظا على الانتحال هو قلة مابقى لطرفة وعبيد وكثرة مايروى لهما ، ويقيم سببا لذلك هو الفحولة والايغال فى القدم وقلة مابقى لهما ، ثم يصل الى نتيجة ادبية نقدية هى عدم الاخذ بالكثير المروى على غثاثته ، وإلا نزلا عن طبقتهما . وهذا مايجب على المؤرخ للأدب ان يدركه ويعيه ويتيقظ لعواقبه بقدر الامكان .

وقد خرج خلف بن حيان فى آخر ايامه «الى اهل الكوفة ، فعرفهم الاشعار التى قد ادخلها فى اشعار الناس ، فقالوا له : انت كنت عندنا فى ذلك الوقت اوثق منك الساعة . فبقى ذلك فى دواوينهم »(٦) . وظل القوم عاكفين على الجمع والتدوين « حتى استطاع النقاد من اصحاب التاريخ والأدب واللغة والفلسفة ان يردوا الاشياء الى اصولها مااستطاعوا الى ذلك سبيلا »(٧)

ويذكر ابن قتيبة ان ابا ضمضم الراوية انشد شعرا لمائة شاعر كلهم اسمه عمر ، وحاول الاصمعى وخلف الاحمر حصرهم فلم يقدرا على ثلاثين ، ومااقرب ان يكون من لايعرف من المسمين بهذا الاسم اكثر ممن عرفه (٨)

اما القاضى الجرجانى فيذكر ان النحويين لشدة اعظامهم المتقدم ، والكلف بنصرة ماسبق اليه الاعتقاد ، والفته النفس ، تكلفوا الاحتجاج لهم بكل المعاذير المتمحلة حتى اذا ضاقت الحجة ؛ غيروا الرواية (٩) .

وهذا اسهام من النحاة فى الانتحال يضاف الى جملة ماعرف من أسباب قبلية وسياسية وشعوبية ودينية . وبهذا تكون عناية النقاد بقضية الانتحال من جميع جوانبها منبهة للمؤرخين فيما بعد حتى تتهيأ وسائلهم للوقوف على الموثوق بصحته من المرويات الأدبية وبخاصة النصوص التى هى اساس عملهم ، وبمقدار ما يقدرون على التثبت من مادة الأدب تكون الثقة فى تأريخهم .

فاذا صحت لدى المؤرخ نسبة النصوص الى اصحابها وهى خطوة علمية اوتاريخية استردادية ، اصبح بعد ذلك امام الجانب الفنى الذى عليه مدار تقويم الأدب والاديب فى ذاته .

## درس النصوص

ان منهج المؤرخ فى درس النصوص الأدبية من جميع جوانبها ، امر يتطلب منه بصرا ثاقبا بعلوم كثيرة : بلاغية ولغوية ونحوية وتاريخية واجتماعية ونفسية وغيرها ؛ حتى يوقفنا على الخصائص الفنية التى تميز الادباء ، وتضعهم ونتاجهم فى طبقة خاصة ، كما يظهر المؤرخ التطور الذى طرأ على فنون الادب على مر العصور ، وماعتور الحركة الادبية فى بيئة معينة وعصر متميز ، فيدرس اساليب الادباء ومالت اليه عبر انتقالها من زمن الى زمن ، وصورهم ومااستحدثوه فيها من توليد واختراع او التزموه فيها من عمود الشعر وطريقة العرب ، ومدى سبرهم اغوار المعانى او اقتطاف ازاهيرها فى يسر وهوادة دون غوص او معاضلة ، وكذا معالم التأثير والتأثر بين السابق واللاحق ، وانتقال القوالب الفنية والفنون الأدبية بين الخافقين وغير ذلك مما هو من عمل المؤرخ للادب ورجاله .

وقد عكف النقاد على ذلك الدرس فى مصنفاتهم ، مما اتاح للمؤرخ ان يتهيأ لعمله بالاتكاء على آرائهم ومباحثهم النقدية ، التى جاءت منوعة فى اتجاهاتها ، متباينة فى ميولها ، متفاوتة فى معاييرها ، الا انها فى مجموعها تمثل معالم ثرية يستهدى بها المؤرخ فى عمله .

١ ـ فقد اشار القاضى الجرجانى فى كتاب الوساطة الى جانبين متكاملين فى دراسة النصوص وتقديرها : الجانب التأثيرى ، والجانب الموضوعى والتحليلى ، وهما متكاملان عند المؤرخ المنصف الذى لايستسلم لذاته وعواطفه الخاصة ، حتى لايصبح الأدب ذاتيا بحتا ، نرى انفسنا ونظن اننا نرى غيرنا ، ولايحيل الأدب مواد عضوية تحلل بلاغيا ولغويا وفكريا ، فيسلبه اعز مافيه وانفسه وهو الادراك النفسى ، انما يستعين بالذوق فى التنبه الى مواطن الجمال وادراكه ، ثم يعمد الى تقصى الاسباب وتفسير العلاقات واستيحاء المعانى فى التراكيب والصور ، وغير ذلك مما يحتاج الى علوم كثيرة(١٠) .

فالجرجانى يرى انك «اذا اردت ان تعرف اللفظ الرشيق من القلب . وعظم غنائه فى تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذى الرمة ... فان روعة اللفظ تسبق بك الى الحكم [ اللفظ بمعنى الملفوظ به ، كما استعمل القول بمعنى المقول ] ( ١١ ) وانما تفضى الى المعنى عند التفتيش والكشف ، وملاك الامر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف به ، ولست اعنى بذا كل طبع ، بل المهذب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة والهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصور امثلة الحسن والقبح»(١٢) .

*فالامر عند القاضى الجرجانى يجرى على تأثر المتلقى بروعة الشعر عند تصفحه ، وما يحدثه من اعجاب يملك القلب ويثير النفس ، وهذا هو الجانب الذوقى ، ثم يعقب ذلك تفتيشا وكشفا عن المعانى ومراميها ، والصيغ وتراكيبها ، والصور ودلالاتها ، وكل ذلك عنده موقوف على الطبع المصقول بالأدب ، المشحوذ بالرواية والتمرس والدربة ، المجلو بالفطنة ، الملهم ملكة التمييز بين رتب القول ومدارجه . كما يحذر من التكلف والتعمل لانهما يفسدان حقيقة النص الادبى . وهذه كلها ألزم ادوات المؤرخ .*

*اما الامام اللغوى عبدالقاهر الجرجانى فقد جلى ذلك فاوضح ضرورة التعليل للاستحسان وعدم الوقوف عند الذوق بقوله : «وجملة ماأردت ان ابينه لك ان لابد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من ان يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة ، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل وعلى صحة ماادعيناه من ذلك دليل (ثم يقول للقانع بالذوق ويحيل غيره عليه) ، وتقول : قد نظرت فرأيت فضلا ومزية ، وصادفت لذلك أريحية ، فانظر لتعرف كما عرفت ، وراجع نفسك واسبر وذق لتجد مثل الذى وجدت ، فإن عرف فذاك ، والافبينكما التناكر ، تنسبه الى سوء التأمل ، وينسبك الى فساد فى التخيل «١٣» .*

فدرس الادب محتاج الى ذوق مدرب يوجه صاحبه الى مكامن الروعة الأدبية ، وعلم يهدى الى أسباب الحسن او القبح بالاستعانة بالعلوم العربية وفنونها .

وهذا ماقرره طه حسين وعنى به جانبين : أحدهما فنى والآخر علمى «١٤»

٢ ـ ويقرر القاضى الجرجانى قاعدة هامة فى درس النصوص والحكم عليها فيقول : وإنما اثبت لك القصيدةبكمالها ، ونسخها على هيئتها ، لترى تناسب أبياتها وازدواجها ، واستواء أطرافها واشتباهها ، وملاءمة بعضها لبعض مع كثرة التصرف على اختلاف المعانى والأغراض «١٥» وهذا ماأكد عليه ابن طباطبا العلوى وأفاض فى بيانه وشرحه ، حيث قرر أن « أحسن الشعر ماينتظم القول فيه انتظاما يتسق به اوله مع آخره على ماينسقه قائله ، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها ... بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها ، نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ، ودقة معان وصواب تأليف ... حتى تخرج القصيدة كانها مفرغة إفراغا ... لاتناقض فى معانيها ، ولاوهى فى مبانيها ، ولاتكلف فى نسجها ، تقتضى كل كلمة مابعدها ، ويكون مابعدها متعلقابها مفتقرا اليها «١٦» ، وكأن القاضى الجرجانى قد وقف على هذه النظرات النقدية الثاقبة لابن طباطبا فى الوحدة العضوية للقصيدة وتلاؤمها الفنى ، فأجرى دراسته للنصوص على حذوها .

فالقصيدة بناء متكامل ، والحكم الأدبى السديد بإيرادها كاملة ، وهذا مايجب على المؤرخ أن يفيد منه سواء فى دراسة الأدب ونصوصه أم الأدباء ونتاجهم وصولا إلى الحقائق الخاصة والعامة ، مايتعلق منها بالأديب فى فنه ، وبالعصر وما يموج به من علوم وفنون وثقافات وأحداث .

أما الاقتصار على النظر فى بعض الاعمال الادبية دون البعض الآخر ، فإن ذلك لايفى بالأحكام الرصينة الشاملة ، بل يصم صاحبه بالحيف وتجنب المعيارية الأدبية فى درس الأدب .

لابأس من اتخاذ أجزاء من العمل الأدبى معالم للدلالة على ملاحظات جزئية معينة ، كالثورة الدموية التى تنضح بها أبيات المتنبىء :

**إلى أى حين أنت فى زى محرم ... وحتى متى فى شقوة وإلى كم**
**وإلا تمت تحت السيوف مكرما ... تمت وتقاس الذل غير مكرم**
**فثب واثقا بالله وثبة ماجد ... يرى الموت فى الهيجاجنى النحل فى الفم**

لكن الصورة الادبية الكاملة لاتتوفر إلابدرس أعمال الأديب كاملة كما فعل القاضى الجرجانى عندما احتكم إلى نتاج المتنبى كله ليحله محله الذى يراه لائقا بشاعريته فقال : «وأنا ارى لك إذا كنت متوخيا العدل ، مؤثراً للانصاف أن تقسم شعره؛ فتجعله فى الصدر الاول تابعا لابى تمام ، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم «١٧» . وقد حذر لانسون من الأخذ الجزئى للاعمال وتأسيس الاحكام عليها ، « وان نلاحظ علاقة دقيقة محددة جزئية فنستخلص منها نتيجة رحبة عامة «١٨»

٣ ـ كما عمد النقاد فى درس النصوص الى شرحها وتحليلها قاصدين من وراء ذلك أمرين :

أولهما نقدى وهو شاغلهم الاعظم ـ وذلك بكشف وإبانة رتب النتاج الادبى ، وعوامل تميزه اوتخلفه ، وما يداخل هذا القصد من مباحث أخرى لازمة للعمل النقدى . كالسرقات والاختراع وقضية اللفظ والمعنى والقدم والحداثة وغيرها .

وثانيهما منهجى أدبى يتمثل فى وضع الاسس التى ينبنى عليها النظر فى مادة الأدب وهو مايفيد المؤرخ فى عمله

مثال ذلك ماورد فى كتاب «**بديع القرآن فى باب سلامة الاختراع من الاتباع**» **وهو من المباحث النقدية التى عرضت فى السياق البلاغى للمصنف ، حيث عرض قوله تعالى** : «**إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**» . وقد افاض المصنف فى بيان الاختراع المعجز فى التعبير القرآنى ، حيث الظفر بنفس الذباب أيسر من الظفر بما يسلبه ، واستنقاذ مايسلبه من العجز عن مثل خلقه ، وختم المصنف عرضه الادبى النقدى بقوله : وهذا مثال يحذو عليه من تتبع ما فى الكتاب العزيز من ذلك«١٩» .

وكأنه بعمله هذا فى الآية القرآنية قد عبد الطريق ومهد السبيل لمن يتصدى للنصوص القرآنية ، بالفهم والشرح والتحليل وإقامة الادلة وسوق البراهين ، تدعيما لظاهرة شائعة ، أو تأصيلا لاتجاه خاص ، أو مذهب متميز ، أو إعلاء لخصيصة مخترعة .

تهتم المباحث النقدية بتصنيف الشعراء والناثرين ووضعهم فى طبقات ، وبيان درجاتهم فى فنونهم ، ومايتميزون به أو يؤخذ عليهم ، ومنازلهم فى عصورهم ، وهذا كله وغيره يوقف المؤرخ على اعمق مايفيده فى تأريخه ، حيث يراهم بعين الناقد ليستقروا بين يديه شيعا متماثلة هنا ومتباينة هناك ، تواصلت اعراق الشعر فى أجيالهم ، فأحالها بعضهم فرائد مجلوة بروائع الفكر وبدائع التصوير ، أوتسكن هامدة رتيبة عند آخرين فاقدة تألقها وتأثيرها ، راجعة عودا على بدء .

فالقاضى الجرجانى وهو يتوسط بين المتنبى وخصومه ، يدلى برايه فى كثير من الشعراء ، فيرى فى ابن الرومى « أننا نستقى القصيدة من شعره وهى تناهز المائة أوتربو أو تضعف فلا نعثر فيها الا بالبيت الذى يروق أو البيتين ثم قد تنسلخ قصائد منه وهى واقفة تحت ظلها ، جارية على رسلها لايحصل منها السامع إلا على عدد القوافى ، وانتظار الفراغ وانت لاتجد لابى الطيب قصيدة تخلو من ابيات تختار ، ومعان تستفاد ، والفاظ تروق وتعذب ، وابداع يدل على الفطنة والذكاء ، وتصرف لايصدر الاعن غزارة واقتدار » ثم يقول فى شعر أبى نواس ولو تأملت شعر ابى نواس حق التأمل ، ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه ... لعظمت من قدر صاحبنا ماصغرت «يعنى المتنبى» ولعلمت انك لاترى لقديم ولامحدث شعرا أعم اختلالا وأقبح تفاوتا ، وابين اضطرابا ، وأكثر سفسفة ، واشد سقوطا من شعره هذا ، وهو الشيخ المقدم ، والامام المفضل الذى شهد له خلف وأبو عبيدة والاصمعى ... فهل طمست معايبه محاسنه ؟ وهل نقص رديه من قدر جيده» (٢٠)

ويمثل لجيده بقوله :

يحميك مما يستتر بفعله ... ضحكات وجه لايريبك مشرق
حتى إذا امضى عزيمة امره ... أخذت بسمع عدوه والمنطق

ويمثل لغثاثة شعره بقوله يمتدح الامين :

فعصا نداه براحتى ... أعلو بها الإفلاس قرعا
وعلى سور مانع ... من جوده إن خفت كسعا
فلو ان دهرا رابنى ... لصفعته بالكف صقعا

ويقول فى تفاوت شعر أبى تمام وتوعر معانيه : «إذ رأيته يقول : ...

جليد على عتب الخطوب إذا عرت ... وليس على عتب الأخلاء بالجلد
أامنح هجر القول من لو هجوته ... إذا لهجانى عنه معروفه عندى

فيترقى فى هذه الدرج ، ويتصرف هذا التصرف المعجز ، ثم ينحط الى الحضيض ، ويلصق بالتراب ويقول :

أأتـرك حـاجـتـى غـرض التـوانـى وأنـت الدلو فـيـهـا والرشـاء

وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من ابيات ضعيفة ، وأخرى غثة ، ولاسيما إذا طلب البديع وتتبع العويص ، فجاء بمثل قوله :

**لن يـأكـلوا هـم ولاعـشـيـرتـهـم ماكنزوه من صـامت الحسب «٢١»**

فهذه الدراسة التطبيقية هى من ألزم الدراسات التى يعكف عليها المؤرخ من خلال المباحث النقدية ، ليتعرف على تصرف الشعراء فى معانيهم هبوطا وصعودا ، والملامح الفنية التى تفرد احدهم عن غيره ، أوتشركه معهم . وكم يصبح المؤرخ متمكنا من الاحاطة بكل مايتعلق بالادباء إن هو اطلع على آراء النقاد وتحليلاتهم ، ثم أخضعها لقدرته النقدية ليصطفى منها مايراه جديرا بالاثبات مستحضرا حسه التاريخى الأدبى .

ومن أدق ماقيل فى البحترى قول الامام عبد القاهر الجرجانى : «وإنك لاتكاد تجد شاعرا يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب، ورد البعد إلى المألوف القريب ، مايعطى البحترى ، ويبلغ فى هذا مبلغه فانه ليروض لك المهر الأرن «**البطر المرح**» رياضة الماهر حتى يعنق من تحتك إعناق القارح المذلل ( أى يسرع إسراع المهر الكبير المنقاد ) ، وينزع من شماس (تمرد ) الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد المطيع ، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره فى قلة الحاجة إلى الفكر والغنى عن فضل النظر ،، ( ٢٢ ) ويفيدنا هذا الرأى النقدى للامام الجليل عبد القاهر فى الوقوف على قدرة البحترى الفنية من جهة إخضاعه المعانى الدقيقة البعيدة لسلطان الصياغة الشعرية السهلة على خلاف أبى تمام الذى تبلغ به الصياغة أحيانا مبلغ المعاضلة والتوعر ، ( ٢٣ ) إلا أن ذلك الاقتدار الشعرى للبحترى هو أصعب منالا ، وأعظم تقديرا من المعانى السهلة التى يستوى فيها النابه والخامل .

وإن كان الشعر قد حظى بعناية كبرى من النقاد ، إلا أننا نجد ما يعين المؤرخ على قصده فى نقدهم النثر .

فنرى اسحق بن وهب يذكر من كتاب الرسائل القصيرة الآتية على المعانى الكثيرة ، سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ويزيد بن الوليد والحسن بن وهب ، وسليمان بن وهب ، وأحمد بن سليمان بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، ويورد نماذج من رسائلهم شاهدة على براعتهم فى الايجاز الموفى بالغرض . كما يذكر من العجم أرسطا طاليس وإقليدس وكان منحاهما الايجاز والاختصار فى الاقوال والكتب ، ليهونا على الناس الحفظ ، ويقربا اليهم النقل . وممن استعمل الشرح والاطالة ليفهم المتعلم ، ويفصل المعانى لتفهم : جالينوس ويوحنا النحوى . (٢٤ ) وهذا ما يوقف المؤرخ على اعلام النثر فى هذا الفن ، ويعلل ابن وهب لأحكامه شارحا المواقف الموجبة للايجاز والاطالة . وكلها مما يفيد منه المؤرخ عندما يعكف على الرصد والدرس والتحليل والاختيار كما أراد النقاد فى مثل قول ابن وهب «وإنما ذكرنا مثالا

يحتذى عليه اللبيب ، ويستن بـه الأديب » ( ٢٥ ) أو يكـون ذلك منهجـاً للشـداة المبتدئين .

ويذكر ابن رشيق أن أبا تمام مدح الحسن بن وهب بالبلاغة فقال :

لم يتبع شنع اللغات ولا مشى رسف المقيد فى طريق المنطق
ينشق فى ظلم المعانى ان رحبت منه تباشير الكلام المغلق ( 26 )

وهذا من أبى تمام وصف لأسلوب الحسن بن وهب ، سجله ناقد حرص على جمع ما يتصل بالنثر ورجاله ، ليفيد منه المؤرخ فى عمله :

ويذكر ابن سنان الخفاجى تفوق عمرو بن مسعدة فى الايجاز ويمثل لأحواله فى هذا الفن مع المأمون الذى أمره أن يكتب لرجل يعنى به إلى بعض العمال كتابـا فى سطر واحد ، فكتب « كتابى إليك كتاب واثق بمن كتبت إليه ، معنى بمن كتبت له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله » (٢٧ )

والرأى فى نقد الرسائل فى هذه المصنفات كما يراه غنيمى هلال « لم يعد ذا قيمة فى النقد ، فهو أقرب الى تاريخ الأدب » (٢٨ ) وهذا يؤكد ما أردناه فى هذه الدراسة من احتفال النقاد فى مصنفاتهم بالتأريخ للأدب فى سياق نقده ، أما قيمة هذا النقد عند المحدثين فى عصرنا فأمر له دراسة مستفيضة تجلى ما أفاء به القدماء علينا ، وما طوف به المحدثون من حولهم ، أو حلقوا فى سمائهم .

وأيا ما كـان ، فقد زخـرت كتب النقد الأدبى ـ وكـذا كتب البلاغـة ـ بالمبـاحث المتنوعة ، والآراء القيمة فى الأدب والأدباء مما يلزم المؤرخ للأدب أن يعكف على درسه وهو يسجل تاريخه . وهى كذلك توقفنا على حقائق كثيرة :

**أولها** : أن الاديب لا يؤخذ ببعض نتاجه ، ولا يقدر إلا من خلال أعماله المكتملة .

**ثانيها** : ان الأحكام التى يقررها المؤرخون فى حق الأدباء إنما هى وليدة الأدب النقدى الوصفى الذى يتخذ من الأدب الانشائى مادته ، وأساسه فى تقويم الأدباء . وبذا يكون المؤرخ ناقدا على نحو ما ، كما كان الناقد مؤرخا .

**ثالثها** : أن القياس على النماذج الأدبية الرفيعة ، والموازنة بين الأدبـاء يؤديـان الى رصانة الأحكام الأدبية ورسوخها ، فقياس التفاوت فى شعر المتنبى على مثيله فى شعر غيره ، لا يفرد المتنبى بمأخذ هو من طبيعة الشعراء فى جل شعرهم ، كما أن الموازنة بـين الأدباء كفيلة بـالكشف عن الاصالة والاتبـاع ، وإيضاح أوجـه الاختـلاف والائتلاف مما يمكن من تكوين الطبقات أو المذاهب الأدبية . وهذه كلها من أدق الأبواب فى درس الأدب والتأريخ له .

**رابعها** : تعين على جانب من تحقيق النصـوص من خلال الوقـوف على الخصـائص الأسلوبية للأدباء وتمكن من التعرف على الظواهر الأدبية الفـردية والجمـاعية ،

وتهيىء لنا تتبع الجدل النقدى حول قضايا الأدب الكبرى ، ومـا تولد عنهـا من نظريات أدبية كما تفسر للمؤرخ جانبا من الخلاف بين المصنفات فى المنشأ والمنهج ، وهذا واضح فى كتابى : الوساطة للجرجانى والمنصف لابن وكيع التنيسى .
وغير ذلك كثير حفلت به كتب النقد والأدب وهى قضايا لازمة لتاريخ الأدب ، وهى ألزم للمؤرخ الذى يجمع فى تاريخه قضايا الأدب ومنازل الأدباء فى سياق تاريخى . حتى يستطيع بذلك وضع الأدباء مواضع تتسق ونتاجهم ، وتقويم هذا النتاج على هدى من المعايير النقدية والأصول الأدبية التأريخية .

وان الدراسة الأدبية فى مجملها لا تخلو من تأثير كل ما دون للعربية من علوم وفنون ومعارف وفلسفات ، فهى تجمع الملامح الجمالية الى الأصول اللغوية وفقهها والقوالب العروضية وما يتفرع عنها من ضرورات مقبـولة وأخرى معيبـة تفسد الصيـاغة أو تحشوها بغير المقبول من التراكيب ، كما تستهدى بعلم النحو الذى يتسق بـه النظم الأدبى على هيئة عقلية ونفسية مقصودتين فى الصياغة ، وكذا علم الانسان والتاريخ والاجتماع وعلم النفس وكثير من الثقافات الغابرة والمعاصرة .
والصعوبات التى يصادفها المؤرخ كبيرة أهمها عدم قدرته على استيعاب هذه العلوم كلها بنفسه ، فضلا عن التأريخ للأدب على هدى من تأثيراتها الحتمية ، لذا كان من الضرورى تكاثف مجموعات من الباحثين فى هذا الصدد ، تختص كل مجموعة بجانب يسهم فى البناء التاريخى لأدبنا فى أنصع صوره وأدقها .

## الحواشى

١ - انظر مجلة المورد ، المجلد السادس العدد الثالث ( عدد خاص عن المتنبى ) مـطوزارة الاعلام العراقية سنة ١٩٧٧
٢ - طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الادبى عند العرب ، بيروت ، المكتبة العربية ١٩٨١ ص ٥
٣ - بدوى طبانة : دراسات فى نقد الادب العربى ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٧٤ ص ١٣
٤ - محمد غنيمى هلال : الادب المقارن ، بيروت دار العودة ص ٤٣٥
٥ - الجمحى : محمد بن سلام ، طبقات الشعراء ط الاولى - بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٨٢ ص ٣٤
٦ - السيوطى : عبد الرحمن جلال الدين ، المزهرج / ٢ جبيروت ، دار الفكر ص ٤٠٣
٧ - طه حسين : من تاريخ الادب العربى ط الثالثة - بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٨ ١ / ١٢٨ .
٨ - انظر ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم ، الشعر والشعراء ط الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٨١ ص ١٠ .
٩ - انظر القاضى الجرجانى : على بن عبد العزيز - الوساطة بين المتنبى وخصومه ط الأولى القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٥ ص٩
١٠ - انظر طه حسين : من تاريخ الادب العربى ط الثالثة - بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٨ - ١ /٤٨ .
١١ - انظر فى مفهوم اللفظ : شرح الرضى على كافية ابن الحاجب ، منشورات جامعة قاريونس ١ / ٢٠ والنحو الوافى لعباس حسن ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ، ١ /١٦ وقد فهم د . مصطفى ناصف فى كتابه « دراسة الأدب العربى » ص ٢٧ ، قول الجرجانى « فإن روعة اللفظ تسبق بك الى الحكم » على انه إطلاق الحبل كله للانطباعات الشخصية ولم يكمل النص ، « وإنما تفضى الى المعنى عند التفتيش والكشف » وهو الشق الثانى فى دراسة النص

١٢ ـ القاضي الجرجاني : الوساطة ... ص ٢٣ ( السابق )
١٣ ـ الجرجاني : عبد القاهر بن عبد الرحمن ، دلائل الاعجاز ـ بيروت ـ دار قتيبة ١٩٨٣ ص ٣٥
١٤ ـ انظر طه حسين : من تاريخ الأدب العربي ... ١ /٤٨ ( السابق )
١٥ ـ القاضي الجرجاني : الوساطة ...ص ٣٠ ( السابق )
١٦ ـ ابن طباطبا العلوى : أبو الحسن محمد بن أحمد ، عيار الشعر ـ بيروت دار الكتب العلمية سنة ١٩٨٢ ص ١٣١
١٧ ـ القاضي الجرجاني : الوساطة ص ٤٩ ( السابق ) .
١٨ ـ لانسون : منهج البحث فى تاريخ الادب ترجمة محمد مندور ـ القاهرة دار نهضة مصر ص ٤١٦
١٩ ـ ابن أبي الاصبع : أبو محمد زكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ـ بديع القرآن تحقيق حفنى شرف ـ القاهرة ، دار نهضة مصر ص ٢٠٠
٢٠ ـ ٢١ ـ القاضي الجرجاني : الوساطة ... ص٥٢ ( السابق ) ، ص ٦٢ ـ ٦٨
٢٢ ـ الجرجاني : عبد القاهر بن عبد الرحمن ، اسرار البلاغة ـ بيروت ، دار المعرفة ١٩٧٨ م ص ١٢٤
٢٣ ـ انظر بن رشيق : ابا على الحسن ، العمدة ـ بيروت ، دار الجيل ١٩٧٢ م جـ ٢ ص ٢٦٦
٢٤ ـ ٢٥ ابن وهب : اسحق ابن ابراهيم بن سليمان ، البرهان فى وجوه البيان ( نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر خطا ) ، بيروت ، المكتبة العلمية ١٩٨٠ م ص ١٠٠ ـ ١٠٤
٢٦ ـ ابن رشيق : العمدة ( السابق ) ص ٢ / ٢٦٦
٢٧ ـ ابن سنان الخفاجى : ابو محمد عبد الله محمد بن سعيد ـ سر الفصاحة ط الاولى بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٨٢ م ص٢١٢
٢٨ ـ محمد غنيمى هلال : النقد الادبى الحديث ـ بيروت ـ دار النقافة ١٩٧٣ م ص ٢٠٣